

قضية فلسطين في اشعار عبدالوهاب البياتي

أمير عمادی راد

طالب الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها

mahmoud.matoori2017@gmail.com

الاستاذ المساعد الدكتور يابر دلفي (الكاتب المسؤول)

جمهورية ايران الاسلاميه

قسم اللغة العربية وآدابها – جامعه آزاد الاسلاميه فرع آبادان - إيران

The subject of palestine in portry abdul wahhab al-bayati

Amir Emadi Rad

PHD student in Arabic language and literature

Master of the course Yaber Delphi

Arabic language and Literature Department , Islamic azad university of

Abadan , Iran

Abstract:

The Palestine affair, as the main political, social and cultural issue, has been chartered in all dimensions and backgrounds of the Arab world in the 20th century and, given the importance of this issue, has focused on the issue of ethnic, political, and racial issues.

All intellectuals, intellectuals and intellectuals have been transformed into a way that almost poet and adibi can not be found in the 20th century, which did not deal with the issue and the issue of Palestine .

After the announcement of the existence of the occupation regime of Quds in 1948 and the displacement and expulsion of Palestinians from their material lands and the plundering of the sentiments and pride of the Arab nations, a new phenomenon emerged in contemporary Arab political poetry as defense and addressing the Palestine cause. Has put the nations of some Arab countries in the arena to steal and steal from other nations and plundered the issue of Palestine in its poems and affirmations.

(Abdul Wahhab al-Bayati), as he writes his thoughts in this space, has, like other Iraqi style lovers and poets, has addressed the issue of Palestine, and has spread it widely and in his poems. You have noticed. Considering the unique poetic features of the poet Abdul Wahhab al-Bayati and the unique and influential role played by Abdul Wahhab al-Bayati in the development of contemporary Arabic poetry in Iraq and the Arab world, this article has been considered in this paper from different angles to This issue is addressed by addressing the poet's poetry and poetry, Abdul Wahhab al-Bayati, in a way that addresses the issue of Palestine and his views on this important issue of the Arab world and Islam.

Key word : Abdul Wahab Al Bayati , Palestine , National Arabism , land stolen , political poetry.

الملخص :

القدس قلب العرب النابض، عاصمة فلسطين، مهد السيد المسيح عليه السلام، ومسرى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أولى القبلتين، وثالث الحرمين.

حظيت القدس باهتمام الشعراء العرب، في أقطار الوطن العربي كله، حتى في المهجر، فنظم الشعراء أبهى القصائد في التغني بها، والدفاع عنها، وتأكيد الأمل في خلاصها من أذى العدوان الصهيوني.

ولقد حملت معظم القصائد معاني مشتركة، من أبرزها :

فضح شراسة العدو الصهيوني في إلحاقه الأذى بالشعب العربي في فلسطين واحتلاله الأرض تصوير مآسي الشعب العربي في فلسطين وما لحق به من مجازر وتهجير واحتلال لأرضه.

تمجيد البطولات والإشادة بالشهداء وتصوير صمود الشعب في الأرض وتمسكه بها.

كشف زيف الصهيونية وإدانة عدوانيتها وفضح أساليبها في ادعاءاتها الباطلة، والإشارة إلى قدوم الصهاينة من أصقاع الأرض لصنع كيان.

التنديد بتقصير العرب في العمل على تحرير القدس والدفاع عن فلسطين والدعوة إلى اتحادهم.

التنديد ببعض الحكام العرب لتقصيرهم في الدفاع عن الحق، والإشادة ببعضهم الآخر لإخلاصهم في العمل على إنقاذ القدس والدفاع عن الشعب العربي في فلسطين.

الوعي بأن الحق لن يعود إلا بالقوة وبنضال الشعب وتمجيد الأعمال الفدائية والانتفاضات الشعبية، والأمل بانتفاضة الشعب العربي كله في أقطاره كافة للعمل على تحقيق خلاص القدس

الكلمات المفتاحية : عبدالوهاب البياتي - فلسطين - القومية العربية - أرض مسلوقة - الشعر السياسي .

المقدمة:

لما نبحت في صفحات التاريخ العصور الماضية نوجد بان القدس كان من اهم المراكز المقدسة و الدينية للاديان السماوية و الشعرا كان يوصفون القدس و الارض المقدسة في اشعارهم لكن موضوع القدس اخذ تابع وصفي في اشعارهم رغم ان القدس قد هدد و احتل مرات و مرات من قبل الرومان و الصليبيين لكن بسبب الحروب التي سميها بالجهاد و حركه المسلمين لتحرير القبله الاولى للمسلمين ما نري تابع سياسي يسيطر علي هذا الموضوع .

في هذا المجال قد ذكرنا بعض الايات الشعرا العصور المختلفه الذي وصفوا او ذكروا القدس في اشعارهم

فلسطين الوطن المستلب:

لم تكن نكبة فلسطين، في النصف الأول من القرن العشرين، حدثاً وطنياً فلسطينياً وحسب، وإنما كانت حدثاً قومياً عظيماً هزَّ العرب هزّاً علي المستوي السياسي والاجتماعي والثقافي. و بديهي أن تُحدث النكبة هذه الهزة في أوساط الجماهير العربية. ففلسطين في ذاكرة الأمة ليست بلداً عادياً كسائر بلدانها، إنها الأكثر قداسة و بركة بعد مكة والمدينة. إنها بلد يتجاوز حدوده الجغرافية الطبيعية بمعانيه الروحية والسماوية، ليصل إلي العالم كله، فهي أرض موسى و مهد المسيح، و غاية إسراء محمد و معراجهِ إلي السماء. و لأن فلسطين (بلد المسجد الأقصى) تحتل في ذاكرة الأمة هذه المكانة الرفيعة، فقد أدت نكبتها علي أيدي العصابات الصهيونية إلي نكبة العروبة جمعاء. و هذه النكبة الشديدة قد تركت أثرها الكبير والعميق في نفوس الجماهير من المحيط إلي الخليج، و خصوصاً أهل الفكر، والكلمة، والفن، حيث جيش مشهد اللاجئين الفلسطينيين المطرودين من ديارهم، زوراً و بهتاناً في نفوس الشعراء العربيين الشرفاء، الشعور بالغضب، فدفعتهم الحمية القومية والإنسانية إلي المطالبة بالتأثر لفلسطين من الطغاة المجرمين الذي ارتكبوا بحقها و حق أهلها كبري الجرائم التي شهدتها التاريخ.

إن نكبة فلسطين أحدثت تحولاً كبيراً و جذرياً في تفكير المثقفين العرب، و في نظرتهم إلي الحياة، إذ عزّوا حدوث النكبة إلي العقلية القديمة والفكر الرجعي الذي يرفض التطور والحدثة رفضاً عدائياً. و لهذا عملوا و في طليعتهم الشعراء علي التطوير

والتحديث في أنماط الفكر والكتابة والتعبير. فوجدوا أن لا مناص من الحداثة في الحياة، فهي وحدها تمكنهم من استيعاب حدث النكبة والعمل علي تجاوزه بنصر فلسطين في إعادة أبنائها اللاجئين إلي حيث أخرجوا من أرضهم و ديارهم بغير حق، و غير ذنب. الشعراء العرب وقفوا مشدوهين حيال النكبة والأحداث التي تلتها. فالخطب جلل والمأساة كبيرة، واللغة الشعرية والأدبية السائدة هي لغة سلفية لا يمكنها أن تصف حال الإنسان العربي الفلسطيني الذي تحول بفعل النكبة من إنسان ذي وطن، و أرض، و بيت، و طموح، و حلم، إلي إنسان مشرد يعيش في الشتات و ينام في العراء. لا يمكنها أن تصف حال الفلسطيني الذي ترك وطنه مكرهاً، و هو يري الأجنبي الغريب يحل مكانه، و يسكن بيته، و يملك حقله.

من هنا جاء العمل الحثيث من الشعراء الجدد علي استنباط اللغة الجديدة التي يمكنها أن تصور النكبة بوصفها مأساة إنسانية استثنائية. من هنا جاء إدراكهم أهمية إحداث التغيير في جوهر اللغة والفكر معتبرين أن الأسباب المباشرة التي أدت إلي نكبة فلسطين أرضاً و شعباً منشأها التخلف الفكري عند العرب، واللغة التقليدية البلدية التي ما عادت تعبر كما ينبغي عن حقيقة واقعهم السياسي والاجتماعي والحضاري. و هذه الأسباب التي أدت إلي النكبة، هي نفسها التي أدت في رأي نزار قباني إلي هزيمة العرب أمام إسرائيل في الرابع من حزيران عام ألف و تسعمائة و سبعة و ستين. و رأي نزار في الأسباب التي قادت العرب إلي الهزيمة نلحظه في قصيدة (هوامش علي دفتر النكسة)، إذ يقول: (أنعي لكم يا أصدقائي اللغة القديمة/ أنعي لكم نهاية الفكر الذي قاد إلي الهزيمة). ١.

إن انتباهة الشعراء العرب إلي خطورة هذه الأسباب، و إلي دورها الكبير في تردّي أمّتهم علي المستويات كافة، قد دفعتهم دفعاً قوياً إلي التحديث في لغتهم الشعرية، فالعتمدوا الرموز الأسطورية، والرموز الواقعية التاريخية، ما أدي إلي إغناء تعبيرهم بالصور والمعاني والدلالات، فصار تعبيراً حديثاً يمتاز بالتكثيف والغموض.

و كما اعتمد الشعراء العرب التحديث في لغة قصائدهم، كذلك اعتمدوه في شكلها، حيث انقلبوا علي الشكل التقليدي التحليلي القديم، فجاءت قصائدهم متحررة من قيود الروي والقافية، إذ كتبوها علي نظام التفعيلة عوضاً عن نظام البحر، فحلت

الجملة الشعرية محل البيت. وهذا التحديث الذي اعتمده الشعراء العرب في تعبيرهم الشعري، قد أطلق العملية الشعرية برمتها من قيودها التي طالما منعتها من الحركة والتطور، وأدى إلي ولادة الحداثة الشعرية بوصفها حركة إبداعية ناضجة قادرة علي الإحاطة بأزمات العصر الجديد، و علي تصوير هموم وأحزان إنسانه المعذب. فلم يكن باستطاعة الشعراء العرب المحدثين، بعد النكبة، أن يصفوا مشهد الألم العام في مجتمع أمّتهم العربية، بلغة بليدة باردة تنتمي إلي عصور انصرمت، و لم يعد لأحداثها أثر إلا في ذاكرة التاريخ. لم يكن باستطاعتهم قبولهم أن يتحولوا إلي مقلدين يكتبون علي قراطيسهم ما كتبه الأولون منذ زمن بعيد.

لم يكن باستطاعتهم أن يصوروا مشهد اللجوء الفلسطيني العام إلي دول الجوار، و ضياع شعب ذي تاريخ حضاري و ثقافي و إنساني عريق في أرض الشتات، إلا بالارتقاء في التعبير الشعري لغة، و أسلوباً، و مضموناً إلي مستوي محنة شعب فلسطين.

الأحداث هي التي تفرض نفسها علي الشاعر، و علي لغته و تعبيره، فتجعله يستلهم موضوعاته من روحها و من أجوائها. فكل شاعر لا تؤثر الأحداث العظيمة في لغته و تعبيره، هو جامد و متقوقع، غير متفاعل مع محيطه الاجتماعي والسياسي، هو يعبر عن نفسه و يكتب ما يرضيها، و يصور آلامه و يغنيها، و لا تعنيه آلام الآخرين.

إن حدث النكبة هو أعظم الأحداث التي شهدناها عصرنا، ليس في دنيا العرب و حسب، و إنما في العالم كله. و لهذا ترك هذا الحدث أثراً عميقاً و كبيراً في كيان أولئك الشعراء العرب الذين التزموا في شعرهم التعبير عن وجع الإنسان، والذين اعتنقوا أفكاراً سياسية و ثورية جعلتهم معنيين أكثر من غيرهم بما يجري حولهم، و في طليعتهم عبد الوهاب البياتي الذي ألمه أن يري الفلسطينيين مشردين و معذبين دون أن يكثر لهم أحد من العالم الجديد الذي يدعي الحضارة والإنسانية. و طبعي أن يتألم، و أن تشتعل روحه غضباً، جرّاء الكارثة الهائلة التي حلت بفلسطين العربية أياً تكن قوميته، فكيف إذا كان عربياً؟!

هو الذي غني في شعره عذابات الطفولة في (وارسوا)، هو شاعر عمال مرسيليا و أمّهات الجنود في ألمانيا الديمقراطية، هو الذي غني انتصار العروبة في مراكش و تونس والجزائر. فلا غرابة في أن يدمي روحه و قلبه جرح فلسطين، فهي وجه العروبة،

والأرض التي اختارتها السماء، لتكون ملتقى الناس جميعاً علي الحب والخير والسلام. لا غرابة في أن يدافع بكلماته الثورية عنها و عن بقائها علي صورتها التاريخية، و هو يري أعداءها الصهاينة يحاولون إزالتها عن خارطة العالم، و محوها من الذاكرة العربية. لا غرابة في أن يقف في ميدانها ثابتاً، مدافعاً عن حقها المقدس، حاملاً قضيتها في شعره إلي كل العالم.

البياتي رأي في جرح فلسطين الأليم جرحاً عربياً و آدمياً في أن واحد، و لهذا كان جرحها يؤلمه إيلاماً مضاعفاً، كان يؤلمه في عروبه، و في آدميته. إنه رأي في الاعتداء علي الشعب الفلسطيني و تهجيرهم من وطنه اعتداءً علي الإنسان بوصفه كائناً آدمياً بحق له أن يعيش مستقراً علي أرضه الوطنية، و أن يشعر بالحرية، و الطمأنينة، و السلام.

لم يكن عند الإنسان العربي العادي حدثاً بسيطاً و عابراً أن يري فلسطين بين ليلة و ضحاها تُستلب من أهلها، لتصير وطناً للغزاة الغرباء الوافدين إليها زمراً من خلف البحار، و من غياهب التاريخ، فكيف عند البياتي؟! فقد رأي هذا الشاعر مشهد استلاب فلسطين من أهلها رؤية مختلفة. إن فلسطين لا تعني له الأرض فحسب- كما ذكرنا آنفاً- و إنما تعني له التاريخ الحضاري و الثقافي العربي المجيد، و هكذا يكون استلابها من أهلها العرب علي أيدي الصهاينة استلاباً للسمّة الحضارية و الثقافية الكامنة في التاريخ العربي، استلاباً للملح جميل من ملامح شخصية العروبة. فالعروبة لا تكتمل شخصيتها إلا بفلسطين حرة من القيود الصهيونية.

إن شاعرنا ألمه جداً أن يري الإنسان الفلسطيني مشرداً و قابلاً في مخيمات اللجوء، لأن هذا الإنسان هو رمز للعروبة، و هو حفيد أبائنا الأوائل الذين ملأوا الدنيا عزاً و مجداً و حضارة. إن شاعرنا يري في تشريد الإنسان الفلسطيني تشريداً للعروبة، و في الاعتداء عليه اعتداءً عليها. وانطلاقاً من هذه الرؤية كان لابد لفلسطين/ الأرض و الشعب أن تحتل في شعره مكانة بخاصة، كان لابد لمأساتها الشديدة أن تتجلى في صورته الشعرية التي تفضح شراسة العدوان الصهيوني الهمجي الوحشي.

البياتي في قصائده التي طرح فيها مأساة فلسطين قد بدا في تعبيره ابن هذه المأساة، إذ وقف عند أبرز ملامحها مبنياً مشهدة الجراح و الألم. فصوره الشعرية في هذا السياق، هي صور تتصل بحقيقة النكبة و أجوائها و تداعياتها، و ليست صوراً تعبّر عن عاطفة

إنسانية أو قومية عابرة و طارئة، و إنما هي ترصد مأساة فلسطين رسداً واعياً، و تنقلها إلي الناس والأجيال القادمة بوصفها حدثاً استثنائياً في التاريخ الإنساني، بوصفها الجريمة الأكثر فظاعة واتساعاً والأكبر حجماً والأشدّ رعباً.

مأساة فلسطين في شعر البياتي، بالإضافة إلي أنها استثنائية و مروعة، هي مأساة تاريخية و قديمة، لم تبدأ مع حدث النكبة، و إنما تعود بدايتها إلي زمن المسيح عليه السلام، فهو الفلسطيني الأول الذي اضطهد علي أيدي أبناء (يهودا).

إن الذين اغتصبوا فلسطين في القرن العشرين من أهلها العرب الشرعيين هم أحفاد (يهودا) والسائرون علي نهجه. و بهذا التسلسل السلالي والعائلي لا يمكن فصل مأساة فلسطين الجديدة عن مأساتها القديمة. فالمواطن الفلسطيني في الزمن الماضي والحاضر قدره أن يواجه عدواً واحداً يهدده بالموت والزوال. و لأن مأساة فلسطين هي مأساة ذات جذور تاريخية، فقد أشار الشاعر إلي هذه الميزة، ليسلّط الضوء علي قدم جرح الإنسان العربي الفلسطيني، فهو جرح عمره طويل جداً، يعود إلي بداية التاريخ.

فالعذاب الذي ذاقه الفلسطيني خلال مراحل وجوده علي أرض فلسطين، هو عذاب لا يمكن أن يصبر عليه أي إنسان آخر. و علي الرغم من هذا العذاب الشديد والمستمر، والذي لم تتوقف فصوله في مرحلة من المراحل التاريخية، ظل الإنسان العربي الفلسطيني صابراً متجلداً أمام المحنة، متمسكاً بوطنه المقدس، و بحقه الشرعي في أن يعيش علي أرضه.

البياتي في عودته إلي الجذور التاريخية التي تتصل بها مأساة فلسطين الحالية يريد أن يظهر أن الشعب الفلسطيني هو شعب الجراح والآلام، شعب مستهدف بوجوده و أصله و حضارته.

إن المؤامرة التي تهدف إلي اقتلاعه من ترابه و دياره مؤامرة شرسة و متوحشة لم تتوقف في يوم من الأيام، فالفلسطيني اليوم هو يسرع الأمس، و درب الآلام واحدة، و يهودا عاد في أحفاده الجدد. والناس الآخرون هم- كدأبهم في كل زمان- شهود زور صامتون علي الجريمة المروعة التي ترتكب بحق أخيه الإنسان. الفلسطيني اليوم يشهد في كل مدنه و قراه الفلسطينية فصلاً جديداً من فصول مأساة التاريخية.

فالصهيونية التي لم تعترف بالمسيح عليه السلام، يوم اختاره الله نبياً مرسلأ من بين عباده، فاضطهدته وحاربتة، هي اليوم ترفض شعب فلسطين، وتدفع به مرغماً إلي دنيا اللجوء والشتات، هي اليوم تضيف إلي تاريخها الإجرامي القديم الحافل بالظلم والطغيان أحداثاً إجرامية وإرهابية جديدة. وهذا التسلسل التاريخي الذي تتبعه الحركة الصهيونية في صناعة الجريمة نلحظه عند البياتي في قصيدة مؤثرة في الوجدان العربي أسماها (قصائد إلي يافا)، حيث يقول في قسمها الأول الذي يحمل عنوان (أغنية)، ((يافا) يسوعك في القيود/ عار، تمزقه الخناجر، عبر صلبان الحدود). ٢.

إن هاتين الجملتين الشعريتين يستهل بهما البياتي القسم الأول من قصيدته التي ذكرناها آنفاً. وهذا الاستهلال له دلالة تعبيرية كبيرة. فاسم يسوع في الجملة الأولى يحمل رمزية العذاب والألم، و رمزية الحق والهداية والسلام. إنه يحمل رمزية الخير والحب، والتضحية بالذات في سبيل الجماعة. وهذه الرمزية يؤكد بها يسوع نفسه في إنجيل يوحنا، حيث أوصي قومه بأن يكون الحب بينهم النهج الدائم الذي يسرون عليه، فقال: (هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم. ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه). ٣.

يسوع الذي يحمل هذه القيم الإنسانية المثالية الرائعة، والذي يدعو إلي اعتناق الحب عقيدة في الحياة واجهه الأشرار بحقدهم وطغيانهم، فظلموه واضطهدوا أتباعه، وظنوا أنهم مانعوه من نشر هذه القيم. إنهم حاربوه بكل شدة وقسوة، بيد أنه لم يستسلم، فظل ماضياً في حمل رسالته داعياً الناس إلي الخروج من الظلام إلي النور، وقد رضي أن يمشي علي درب الآلام مضحياً في سبيل شعبه آنذاك، وفي سبيل الأجيال التي سوف تأتي بعده. إنه كان يؤمن بأن زوال الشر والطغيان يحتاج إلي صمود و تضحية من أهل الخير والسلام والمحبة، و لهذا جعل من نفسه نموذجاً لهم، فكان قدوتهم في الصبر و تحمل الآلام. كان قدوتهم في التمرد علي السلطان الجائر، فلم يقبل المساومة، و لم يقبل المهادنة، بل كان يشعر بالغبطة الشديدة والمثيرة، و هو يضحي في سبيل بني قومه، حيث أن ذروة الحب عنده تكمن في التضحية بالنفس في سبيل الآخرين، في سبيل الذين سوف يولدون بعده. فليس ثمة حب أعظم من الحب الذي يدفع صاحبه إلي أن يضحي بنفسه لأجل أحبائه. إن قول المسيح الذي أوردناه آنفاً، يدعو الناس إلي التحرر من سيطرة

ذواتهم و رغباتهم، يدعوهم ليكونوا متحابين، فلا يكره أحدهم الآخر، و لا يضمّر في نفسه الشرّ له، يدعوهم إلي التضحية في سبيل أحبائهم، لأنّ هذه التضحية تخلصهم من أنانيتهم القاتلة، و من الشرور والأخطار التي تدفعهم إليها رغباتهم الخاصة، و لأنها تمكنهم من بناء مجتمع إنساني يقوم علي أسس المحبة والسلام.

المسيح اضطهد علي أيدي الطغاة والأشرار، لأنّه يؤمن بهذه التضحية النموذجية لأنّه يعمّم ثقافة التضحية علي أبناء المجتمع، و يجعلها نهجاً لأجيال لم تولد بعد. إنّه اضطهد علي أيدي الطغاة والأشرار، لأنّه نقيضهم، و يمثل قيم العدل و يدعو إلي السلام، و هو بهذه القيم الإنسانية الرائعة يتجدّد في كلّ فلسطيني، و في كلّ أبناء (يافا)، يتجدّد فيهم قيماً و مأساة. فالتجربة الحياتية التي عاشها المسيح عليه السلام، والتي عاشها الفلسطينيون في ظلّ النكبة و بعدها هي نفسها، فلا فرق بين التجربتين. فالبياتي، إذ اعتبر في مستهل القسم الأول (١- أغنية) من قصيدته (قصائد إلي يافا) أنّ المسيح مكبل بالقيود، فهو أراد به رمزاً يدلّ علي الفلسطينيين المكبلين بقيود الاحتلال الصهيوني. و هو في الجملة الأولي يعيد إلي (يافا) ذاكرتها التاريخية، لتتذكر بداية مأساتها أيام المسيح، و تدرك أنّ حاضرها هو تميّة لتاريخها القديم.

إنّه يعيد إليها الذاكرة التاريخية، ليجعلها تثبت أمام المحنة الجديدة، كما ثبت المسيح أمام محنته القديمة، و ليجعلها أكثر إيماناً وثقة بانتصار الخير علي الشرّ والمحبة علي الكراهية.

إنّ (يافا) في الجملتين الشعريتين الآتيتين هي مدينة المعاناة والألم. و هذا المعني نستشفّه من رمزية الصلبان التي استخدمها الشاعر في الجملة الثانية. فالصلبان تحيط بيافا من كلّ جانب، و تمنع عنها كلّ مساعدة و كلّ فعل نجده. و ما يافا في هذه الصورة الشعرية إلّا رمزٌ هي الأخرى إلي كلّ فلسطين. فكل المدن الفلسطينية هي يافا بمعاناتها. و كلّ الفلسطينيين هم المسيح بمعاناته. و هكذا يتحد المكان والزمان. فكلّاهما واحد، و ما الحاضر إلّا تميّة للماضي، و ما الأحداث الشديدة التي تحدث في فلسطين اليوم إلّا صفحات جديدة تُضاف إلي سفر الألم القديم. و هذه المأساة المستمرة فصولها علي أرض فلسطين التي تمثّلها يافا في هذا القسم من (قصائد إلي يافا) جعلت البياتي يشعر

بعاره و يعترف به، لأنّ الهوان الذي يفرض علي العربي في يافا فرضاً، هو إهانة لكلّ العرب، و إهانة للأدمية جمعاء.

و شعور البياتي بالعار جعله بائساً و حزيناً لا يعرف للتمتّع بالحياة معني و وسيلة. هذا الشعور جعله يبكي، فهو شعور مؤلم، جعله يبكي علي آلام إخوانه اليافيين في العروبة والإنسانية، جعله يبكي علي الحضارة العربية التي يزيل الاحتلال الصهيوني معالمها و ملامحها من فلسطين و يعمل جاهداً علي إزالتها أيضاً من ذاكرة العرب: (قالوا: "تمتّع من شميم، عرار نجد، يا رفيق" فنبكيت من عاري: "فما بعد العشية من عرار"). ٤

ليس الزمان، عند البياتي بعد النكبة، زمان متعة، بل هو زمان ألم و حزن، لأنّ العرب فيه قد ذلّوا، و لبسوا ثوب العار. و هذا الشعور الذي اعترى البياتي بعد النكبة، هو نفسه الذي اعترى نزار قباني بعد النكسة، فافتقد شعوره بالمتعة واللذة، و لم يعد يري في الحياة أي معني للجمال. و حتّى القصائد فقدت حلاوتها، وصارت عنده مألحة. و كذلك صفائر النساء، و ليس هذا و حسب، بل كلّ الأشياء فقدت طعمها الطيب، وصارت مألحة في مذاقه: (مألحة في فمنا القصائد / مألحة صفائر النساء / واللّيل والأستار والمقاعد / مألحة أماننا الأشياء). ٥

هذا الشعور بالاكثاب والحزن، والذي يبدو شعوراً مشتركاً بين عبد الوهاب البياتي و نزار قباني، سببه الصدمة النفسية العنيفة التي تلقاها كلاهما عقب المصائب الكارثية التي حلّت بفلسطين والأمة، المصائب الكارثية التي وضعت عروبة فلسطين علي طريق الزوال. و لم يكن هذا الشعور منهما شعوراً مزيفاً، أو فيه مبالغة، بل إنّ شعور صادق جداً. فنظرة الشاعر إلي الأحداث التي تعصف بأمتّه تختلف كثيراً عن نظرة الإنسان العادي، و كذلك شعوره حيال مشهدية الألم والعذاب، هو شعور مختلف. ففلسطين في وجدان البياتي تختلف عنها في وجدان العربي والفلسطيني العادي، و لهذا اختلفت عنده معاني مأساتها و كبرت و تعمّقت في نفسه جراحاتها.

هذا الشاعر لم ينظر إلي مأساة فلسطين باعتبارها مأساة عربية و حسب، و إنّما اعتبرها مأساة إنسانية، و هذا نلحظه في قوله: (يافا يسوعك في القيود). فيسوع برسالته السمحاء و قيمه الفاضلة، لا ينحصر ضمن حدود وطنية و قومية، بل هو رسول المحبة إلي الإنسان. والقيود التي تكبله لا تؤلم يافا وحدها، ولكن تؤلم كلّ الناس الذين

يمشون علي نهجه، و يقاومون الشرّ والطغيان. جراحات فلسطين هي جراحات عميمة منطلقها الأرض العربية. فهذه الأرض، منذ أن وطئها الإنسان، قد خصّها الله ببركته، و قدّسها، و جعلها منطلق رسالاته إلي الأمم. و لهذا من البديهي أن تُحسّ الأدمية جمعاء بالآلام إنسانها العربي. بيد أن هذا الإحساس الآدمي العام لم يحدث، بل بقيت فلسطين وحدها في محتتها، و تركت منكوبة و مذبوحة. والعالم الذي يدعي الحضارة والمدنية والحفاظ علي حقوق الإنسان، بعضه نظر إليها متفرجاً، و بعضه مباركاً ذبحها.

و هذا الموقف المتخاذل من العالم الجديد حيال مأساة فلسطين، هو الذي جعل البياتي يشعر بعاره الذي سببه له هوان العربي علي أرض الرسالات. و كيف لا يشعر هذا الشاعر/ الإنسان بالعار والأسى، و كيف لا يشعر بالكآبة، والسبب الذي يخلق في نفسه هذا الشعور، هو سبب واقعي؟! فالباب إلي يافا موصد، لا يستطيع أحد أن ينقذها من محتتها و عذابها. إنها مدينة تركت لمصيرها الجهنمي الأسود، و ليس أمامها إلي النجاة سبيل. فالحصار مضروب حولها. والطريق منها و إليها خال، و هذه الصورة الشعرية البياتية تشير إلي الحال المأساوية التي عاشتها يافا في ظلّ النكبة، حيث لقي أهلها المحاصرون حتية الموت. فلم يستطيع أحد منهم الهرب إلي منطقة أخرى، يجد فيها ملجأ آمناً، و لم يستطيع أحد الوصول إليهم، لينجيهم من بين فكي الوحش الصهيوني المفترس.

إنها صورة مأساوية، و في مشهديتها إهانة شديدة للإنسان، و هي تطعنه في صميم آدميته. والذي يظهر فظاعة الجريمة التي ارتكبتها المجرمون الغزاة بحق يافا بشراً، و حجراً، و شجراً في هذه الصورة، هو مشهد الموتى الصغار المبعثرين علي الأرض، و علي الطرقات بلا قبور. و قد أراد الشاعر بهذا المشهد أن يبين أن الإنسان العربي في يافا تُنتهك كرامته حياً و ميتاً، لعلّه بهذا التبيين يحركّ النخوة النائمة في صدور العرب الذين اعتادوا خلال تاريخهم الطويل علي إكرام موتاهم بدفنهم. فمشهد الموتى المبعثرين علي أرض يافا و طرقاتها فيه إهانة للعرب و إهانة للناس كافّة، بيد أن أحداً لم يعبر عن امتعاضه من هذه الإهانة. فالجميع كانوا مشاهدين عاديين. فالعرب لم تجعلهم نخوة العروبة و حماسها يرفضون الإهانة و يستكروا الجريمة الشنعاء، والناس الآخرون لم تحركّ فيهم آدميتهم الغيرة علي جنسهم و أصلهم الآدمي.

المصيبة العمياء إلي نزلت بيافا هي التي دفعت البياتي إلي التعبير عن شعوره بهذه اللغة الواضحة والغاضبة. فالخطب جلل و أليم، و لا يستطيع الشاعر الملتزم بأمته و إنسانيته أن يصفه وصفاً باهتاً، و لا يستطيع أن يعبر عنه بلغة تفتقر إلي العاطفة القومية والإنسانية.

هذا الخطب يحتاج، كي يظهر بكل فظاعته و فداحته، إلي جرأة شعرية، كهذه التي نجدها في القسم الأول من (قصائد إلي يافا)، حيث كشف البياتي عن كل تفاصيل الجريمة، التفاصيل التي تثير في نفس القارئ/ الإنسان الاشمئزاز من تخيل ما حدث و تصوّره. فالجريمة التي نفذها المجرمون الغزاة علي أرض يافا، هي جريمة تجاوزت حدود العقل والخيال، هي استهتار بالإنسان والحياة. و لو كان الذين نفذوها يحترمون الحياة، لما قتلوا الإنسان البريء، و لو كانوا يحترمون الإنسان، لما كانوا رفضوا أن يكرّم بعد قتله بـدفن جثته. هذه المعاني الإرهابية الوحشية قد جسّدها البياتي في صورة شعرية إبداعية حيث قال: (فالباب أوصده (يهودا) والطريق/ خال، و موتاك الصغار/ بلا قيود، يأكلون/ أكبادهم، و علي رصيفك يهجعون).٦

مشهدية الموت والتشرد التي تظهر في هذه الصورة الشعرية، هي مشهدية واقعية حقيقية عاش تفاصيلها الدقيقة الإنسان العربي الفلسطيني أبان النكبة والنكسة، حيث مارس الغزاة آنذاك، بحق وجوده، أسلوب القتل الجماعي، فكانت المأساة الكبيرة التي لم تنته فصولها إلي اليوم. فما زال العربي الفلسطيني يعيش النكبة في غزة والضفة، و في كل مكان يوجد فيه من أرض وطنه، ما زال يتعرض من الغزاة الصهاينة إلي الحرب الحاقدة المستمرة التي تبغي إزالته عن أرضه و إزالة حضارته و تراثه.

الصورة الشعرية التي أوردناها آنفاً تضع القارئ المتلقّي حيال مشهدية التروح الفلسطيني الجماعي من يافا، و تجعله موجوداً في قلب الحدث. و كأن زمن النكبة قد توقّف و لم يتقدّم لحظة واحدة، و كأن مشهدية التروح تحصل الآن، فيري القارئ في هذه الصورة المذكورة جثث الموتى المبعثرة، و يري الهاربين من آلة الموت ينامون علي الرصيف في مدينتهم المنكوبة خائفين، جائعين ينتظرون خلاصهم حتي و لو كان في مخيمات اللجوء. و هذا التأثير الشعري التصويري الشديد في نفس القارئ، و في عاطفته، و إحساسه سببه صدق الشاعر في الانتماء إلي يافا قومياً و إنسانياً. فنكبة يافا

آلمته في عروبتة وإنسانيته، و جعلته يحسّ آلام أبنائها و كأنه واحد منهم. و إحساسه هذا هو الذي أتاح له أن يرسم بكلماته الشعرية، هذه الصورة النابضة بالعاطفة. إن شاعرنا يريد في هذا السياق أن يوجّه إلي الذين لا تعنيهم الأفعال الإرهابية والإجرامية التي يرتكبها يهوذا علي أرض فلسطين العربية رسالة تحمل كل معاني التأنيب والاحتقار، و تلعن صمتهم علي المنكر والبغي والعدوان. يريد أن يوقظ فيهم الشعور الإنساني الذي غرق في نوم ثقيل، إذ لا يجوز أن يصمت إنسان علي قتل أخيه في الآدمية. مهما يكن بينهما اختلاف في العرق أو الدين، فكل الناس يعودون إلي أصل أدمي واحد، و هم مأمورون من الله في كتبه السماوية أن يعملوا من أجل الخير والسلام. فمن يصمت علي الجريمة، فهو مجرم كمرتكبها، و ليس له عذر يبرئه، أو يمنحه صفة الحياد والاعتدال، و من يرفضها- و لو بالكلمة- يكن كأولئك الذين يرفضونها مدافعين عن أنفسهم بالسلاح في ميدان القتال. والبياتي الذي رفض أن يصمت العالم علي آلام الشعب الفلسطيني، هو لم يصمت يوماً علي آلام الشعوب الأخرى، فقد عبر في شعره عن آلام الإنسان في آسيا، و أوروبا، و أفريقيا غير متعصب لقومية. هو شاعر الإنسان و معني بوصف معاناته، والتعبير عن أوجاعه، هو شاعر يحمل لواء الحداثة الشعرية بجداره من حيث هي وصف إبداعي للأحداث السياسية والاجتماعية، و تعبّر حديث عن الإشكالات التي تحفل بها الحياة. و لو لم يكن من أهل الحداثة الشعرية، لما استطاع أن يضعنا أمام مشهدية النكبة الفظيعة المؤلمة، أمام ضخامة الكارثة التي حلت بالفلسطينيين، حيث أضحوا بين ليلة و ضحاها مشردين مسلوبين الوطن والأرض.

إن الكلام عن حالة الاستلاب التي عاشها الفلسطينيون هو أقل تأثيراً في النفوس من تصويرها، و طالما ردّدنا علي ألسنتنا المثل القائل: (الكلام غير الرؤية). فشاعرنا في نهاية القسم الأول من القصيدة المذكورة يمنحنا الرؤية و يضعنا بواسطة أسلوبه التصويري حيال مشهدية النكبة المروعة. فالموتى جماعات، والجثث مبعثرة في كل مكان. و هذا يشير إلي الإسراف في فعل الجريمة، و يشير إلي أن الغزاة مجردون من كل القيم الإنسانية والأخلاقية، إذ لم يفرّقوا- في ممارستهم فعل القتل- بين فلسطيني يدافع عن أرضه و نفسه و آخر صغير ضعيف. إنهم مجرمون ممتازون في صنع الجريمة، لا يردعهم ضمير أو شعور إنساني. هدفهم واحد و محدد، و هو إبادة العروبة علي أرض فلسطين، و محو

صورته الحضرية القديمة. هدفهم إقامة الدولة العصرية علي أرض التلاقي الحضاري والديني، وأرض التسامح، ولهذا هم لا ينجلون أمام العالم بأفعالهم الإجرامية، ولا يأنهون ببعض الشجب والاستنكار. فهم الوحد الوصول إلي هدفهم المذكور و تحقيقه، وهذا لا يكون إلا باعتماد أسلوب الجريمة الجماعية التي ترهب الفلسطينيين، و تدفعهم إلي ترك ديارهم مرغمين.

إن أكثر ما ألم البياتي في أحداث النكبة والنكسة، هو الاستلاب الذي أصاب الفلسطينيين علي المستوي الوطني والقومي. والذي زاد إيلايه أضعاافاً هو شعور اللاجئين بمرارة الاستلاب، وإدراكهم الخسارة الفادحة في معناها، فهم عرفوا- رغم هول المصيبة- أنهم خسروا الوطن/ الأم، والوطن/ العروبة. فالمصيبة لم تفقداهم الوعي و قدرتهم علي تفسير الأحداث و تحليلها، بل صاروا أكثر معرفة في فهمها، و أكثر إحاطة بأسبابها و أهدافها و تداعياتها. صاروا أبناء المأساة، و أهل أقدر قضية إنسانية شهدها التاريخ القديم والحديث. صاروا أبناء الضياع، و عليهم وقعت أحمال ثقيلة، و هي أحمال النضال في سبيل الوطن والعودة إليه. البياتي في القسم الثاني من هذه القصيدة يطرح مأساة اللاجئين بوجهيها الوطني والإنساني، و يضع القارئ حيال الصورة الحافلة بمعاني البؤس والألم. و يكفينا أن نقف عند عنوان هذا القسم (أسلاك شائكة) وقفة سريعة حتي نفهم أن مضمونه يتحدث عن العقبات والصعوبات التي تعترض مسيرة الشعب الفلسطيني علي طريق النضال والعودة.

العنوان (أسلاك شائكة) يدل علي الطوق الظالم الشديد الذي ضربه الغزاة حول اللاجئين في فلسطين و في بلاد الشتات. فعودتهم إلي فلسطين دونها الحدود والجنود. ولكن الشاعر لا يري عودة اللاجئين إلي وطنهم مستحيلة، فهم سيزيلون الأسلاك الشائكة بصبرهم علي المأساة و بنضالهم و تضحياتهم. إن إقامتهم في الخيام الباليات لم تضعف عزمهم، و لم تجعلهم يستسلمون لقدر الهزيمة. إنهم مسلحون بقوة الإيمان والصمود، و لأنهم يملكون هذه القوة العاتية، أصبحوا للشاعر قدوة في مقاومة الزوال. فصمودهم علي الرغم من شدة المأساة منحه الطمأنينة والتفاؤل بالظفر علي الموت. إن مشهدية اللاجئين المبعثرين في الخيام لم تثبط عزيمة الشاعر، و لم تقتل روح الصمود لديه، و لم تجعله يأس من انتصار الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق علي المعتدين

الغزة، بل زادتة إيماناً بحتمة انتصارهم و عودتهم إالي وطنهم. و ما انتصارهم في معركة البقاء إلا انتصاراً للبياتي أيضاً. فقضيتهم قضيتة. و مصيره مرتبط بمصيرهم. إنه يستمد صموده، في المعركة التي يخوض غمارها ضد الموت، من صمودهم.

إن جيش الموت لن يغلبه ما دام في المصباح الذي ينير ليل اللاجئين زيت و نار. و هذه الصورة الشعرية المفعمة بمعاني التفاؤل نلحظها في قول البياتي: (في غابة الزيتون ناحبة، علي سمعي تعيد/ مأساة شعبي الصّامد المقهور مأساة الضياع/ و كأنّ معركة تدور/ بيني و بين الموت في صمت و إصرار حزين/ أنا لن أموت/ ما دام في مصباح ليل اللّاجئين/ زيت و نار، عبر مقبرة الحدود/ حيث الخيام الباليات كأنها في الريح لافتة تشير إالي طريق العودة الدامي القريب).٧

البياتي في هذه الصورة الإبداعية يعبر عن ارتباطه الوجودي والوجداني باللاجئين، فبقاؤهم يعني بقاءه، و زوالهم يعني زواله. فهو مثلهم في قلب المحنة يعيش قلقاً حاداً علي مصيره، و هذا نلحظه في المعركة الدائرة بينه و بين الموت. و لو لم يكن شاعرنا يعيش قلقاً، و هو ينظر إالي مستقبل فلسطين و أبنائها المشردين، لما اعتبر نفسه يخوض هذه المعركة الشرسة مع الموت، لما اعتبر نفسه يخوض معركة المصير. إن المعركة التي ذكرها في المقطع الشعري المثبت آنفاً تحمل هذه الدلالات المصيرية، فهي ككل معركة سوف تُسفر عن نتيجة محدّدة، فإما النصر و إما الهزيمة، و إما الحياة و إما الموت. و يتسرّب التفاؤل إالي نفس الشاعر و روحه و هو في قلب المعركة، فيصبح أكثر إيماناً بانتصار الخير علي الشرّ و الحقّ علي الباطل. يتسرّب التفاؤل إالي نفسه و روحه، ثمّ يكبر، ليصير طمأنينة و عزماً جباراً و إصراراً علي البقاء. فالقضية العربية الفلسطينية لن تموت ما دام اللّاجئون أحياء. فهم لن يستسلموا لأعدائهم، و سيظلّون يقاتلونهم حتي إعادة الوطن المستلب إالي أهله الحقيقيين. فالمصباح الذي يضيء ليلهم الطويل يرمز في الصورة الشعرية السابقة إالي بقائهم أحياء، و يرمز إالي صمودهم و استمرار نضالهم. وزيته يرمز إالي الروح الثورية المشتعلة في نفوسهم، و احتراق الزيت في المصباح يرمز إالي عذابهم و شقائهم. و من الاحتراق يكون انبثاق النور الذي يبدّد أمامهم ظلمة الليل في بلاد اللّجوء و التشرّد، و يمنحهم الرؤية التي تجعلهم مبصرين، فيضعون الخطوة الأولى علي طريق العودة. إننا نلحظ في هذا القسم كيف يعتمد البياتي التصوير الشعري

الإبداعي في حديثه عن النكبة والمأساة الإنسانية التي أعقبتها، دون أن يستدرج إلي التوثيق التاريخي في الكتابة. فالقارئ الذي يقرأ اليوم (قصائد إلي يافا)، بعد مرور زمن طويل علي كتابتها، لا يشعر أنه يقرأ وثيقة تاريخية تطلعه علي حدث قديم لم يعيش عصره، وإنما يجد نفسه حيال عمل شعري وفني عظيم الروعة والجمال، حيث أن القصيدة تصور الحدث (النكبة) تصويراً وجدانياً داخلياً، و لا تصوّره تصويراً توثيقياً خارجياً.

الشاعر حين كتب هذه القصيدة لم يكن صحافياً يريد أن ينقل الحدث نقلاً يتصف بالصدق والدقة إلي الجمهور العربي والعالمي، لم تكن مهمته أن يضع هذا الجمهور حيال مشهدية النكبة الواقعية، بل كان إنساناً منكوباً ومفجوعاً يريد أن يعبر عن نكبته و فجيعة تعبيراً منبثقاً من الشعور الإنساني الصّرف. كان فناً مبدعاً وشاعراً أصيلاً يجسّد الصورة (صورة الحدث) بواسطة الرؤية الخيالية الشعرية، و لا يجسدها بواسطة الرؤية البصرية الصحافية. إن ما يراه الصحافي بعينه ينقله، كما هو حاصل و ظاهر، بلغة تقريرية مباشرة لا تحمل التأويل أو التحليل، و لا تثير في نفس المتلقي الانفعال الوجداني أو الإنساني. و ما يراه الشاعر بعينه ينقله بواسطة بصره إلي خياله، فيخضعه إلي إعادة تشكيل جديد، فيخرج بعدئذٍ من الخيال إلي المتلقي عملاً إبداعياً مغايراً للواقع، عملاً لا يمكن إدراك جوهره و جماله بالرؤية العادية المباشرة، بل بالرؤية الخيالية التي تتقصّي أبعاده، و تستلهم مضامين سياقاته اللغوية. و نحن إذ ندرس هنا (قصائد إلي يافا)، و خصوصاً القسم الثاني منها (أسلاك شائكة)، دراسة إبداعية تحليلية ينبغي علينا ألا نهتم كثيراً بتفاصيل الحدث الذي أفضي بالشاعر إلي هذا العمل، بل ينبغي علينا أن نهتم بالانفعالات الوجدانية والإنسانية التي أنتجت.

إن ل (قصائد إلي يافا)، كما لأي عمل شعري آخر انتماءات سياسية أو وطنية، أو قومية، أو إنسانية، ولكن علينا ألا نولي هذه الانتماءات اهتماماً علي حساب العناصر الجمالية والإنسانية. (إن الاهتمام بالانتماءات الجديدة للنص لا يجب أن ينسينا الطبيعة الجمالية للأدب حتي لا يتحوّل النص إلي وثيقة تاريخية أو مقطوعة دعائية).^٨

البياتي في القسم الثاني (أسلاك شائكة) من قصيدته التي تتدالها ههنا، شارحين و محلّلين، لا يهدف إلي وضعنا حيال تفاصيل حدث النكبة، وإنما يهدف إلي التأثير في

مشاعرنا بواسطة الصورة. فهو إذ يصف في القسم المذكور خيام اللاجئين، يتعد عن الوصف التقريري، و يكتفي بالإشارة التي يسترشد القارئ أو الدارس بواسطتها إلي المغزي الذي يتمثل بالمأساة الحياتية الفلسطينية في بلاد اللجوء.

يكتفي بالإشارة التي تدلُّ علي الضياع الاجتماعي الذي آل إليه اللاجئون الفلسطينيون. ونحن (ماذا نطلب من الشاعر؟ أنطالبه أن يتقصي بعقله حقائق الأشياء في نفسها ليصفها كما هي في الواقع، مستقلة عن حواس الإنسان؟ إنه لو فعل كان بهذا الوصف الموضوعي أقرب إلي الفلاسفة والعلماء منه إلي أصحاب الفن والشعراء).^٩

الشاعر الأصيل لا يمكن أن يستخدم في تعبيره الشعري سوي اللغة الإشارية الإيحائية، و علي المتلقي أن يدرك المعاني الكامنة وراء الإشارات والإيحاءات، علي المتلقي أن يدرك التفاصيل بواسطة انفعالاته الوجدانية و قدرته علي التحليل، و تمثل الأحداث التي لم يشاهدها. فصورة الخيام الباليات، علي سبيل المثال، الواردة في نهاية القسم الثاني (أسلاك شائكة) هي صورة شعرية إبداعية غير تقريرية، لا تظهر طبيعة المأساة الحياتية التي يعيشها اللاجئون داخل خيامهم. ولكن علي المتلقي أن يدرك طبيعة هذه المأساة الحياتية الفلسطينية بواسطة الإشارة إليها، إذ ماذا يمكن أن يكون داخل الخيام الباليات سوي الجوع والألم والحزن؟ ماذا يمكن أن يكون داخلها سوي الشعور بالظلم والاستلاب؟. فليس أمراً بسيطاً و عادياً أن يعيش الإنسان الفلسطيني لاجئاً في الخيام الباليات بعد أن كان يعيش مستقراً في مترله و علي أرض وطنه. ليس أمراً بسيطاً و عادياً أن يدرك الفلسطيني معني اللجوء، وأنه صار بلا وطن، و غد، و أحلام.

إن الفلسطيني الذي اقتلع من أرضه أبان النكبة أو النكسة، و أبعد إلي عالم الغريب والضياع كان أهون عليه ألف مرة أن يقتل من أن يلقي هذا المصير المخزي. ولكن البياتي بوصفه شاعراً ذا تجربه حياتية غنية بالثقافة التاريخية والمعاصرة وجد أن هذه المعاناة التي يعيشها اللاجئون بعيدين عن فلسطين، ووطنهم التاريخي، لن تدوم و لن تكون معاناةً سرمديةً. فقد منحهم الأمل شعلةً مضيئة ليحملوها، و هم يمشون في كنف الليل المظلم علي طريق العودة. فعودة اللاجئين إلي ديارهم و أرضهم حتمية سيحققها صبرهم و نضالهم. و قد وصل شاعرنا إلي هذا الاستشراف المستقبلي من خلال نظره إلي الخيام الباليات بإمعان و تأمل، حيث بدت هذه الخيام أمام عينيه كأنها لافتة تشير

إلي طريق العودة. إنه في هذه الصورة الشعرية الرائعة يزرع في نفوس اللاجئ المحبطين الثقة، والقوة، والتفاؤل، والأمل، فيمارس دور القائد الجماهيري الذي لا يخاطب شعبه إلا ليجعله أكثر صموداً و منعة أمام المحن والنكبات. إنه في هذه الصورة الشعرية الرائعة قد جعل الهزيمة مؤشراً إلى الانتصار، و جعل الخيام الباليات التي تحمل معني الضعف، والهوان، والضياع، والتشرد مؤشراً إلى العودة.

هذا الدور الذي يؤديه شاعرنا في هذه الصورة هو دور الشاعر الأصيل الذي لا يقتصر تعبيره الشعري علي تصوير عذابات الإنسان و تصوير معاناته الشديدة هادفاً إلى إثارة العاطفة الإنسانية في نفس المتلقي. و إنما يتجاوز تعبيره الشعري حدود التصوير والإثارة، ليسهم في تشكيل جبهة جماهيرية مقاومة يثق أفرادها بأن التغلب علي المحن ليس أمراً مستحيلاً، و أن الانتصار علي الطغاة يتوافق مع سنة الحياة.

فالخيام الباليات في تعبير البياتي فقدت معناها المباشر الذي يدل علي الخيبة، والضياع، والنكبة القومية، لتكتسب معني جديداً، يدل علي الثورة و رفض الهزيمة، يدل علي الكفاح بغية الثأر لفلسطين من أعدائها، إذ لا يمكن للإنسان الفلسطيني المشرد، المستلب وطنه، المنتهكة كرامته- كما يراه البياتي- أن يرضي بالتقاعس عن أداء واجبه الوطني والقومي، لا يمكنه أن يقبل العيش في الخيام تحت و طأة الذلّ والعار. فالفلسطيني المنكوب- كما يراه البياتي و يعرفه- سوف يشعل الثورة المسلّحة التي تثار له من أعدائه، سوف يضحّي بروحه و دمه في سبيل عودته إلي ربوع فلسطين. إنه لن يرضي طريقاً يعيده إلي وطنه و داره سوي طريق الثورة والدماء. فما زالت النخوة العربية تعيش في روحه، و هذه الروح الثورية التي تأبّي الضيم، و ترفض أن تكون الخيام الباليات في بلاد اللّجوء بدلاً عن الديار العامرة علي أرض فلسطين، يصورها الشاعر في قوله: (أنا لن أموت/ ما دام في مصباح ليل اللاجئ/ زيت و نارٌ عبر مقبرة الحدود/ حيث الخيام الباليات كأنها في الريح لافتة تشير إلي طريق العودة الدامي القريب). ١٠.

إنّ طريق العودة في هذه الصورة هو طريقٌ دام، و للدم هنا رمزية واحدة و واضحة هي رمزية الثورة والتضحية والشهادة. والشاعر يريد بهذه الرمزية أن يؤكد علي ضرورة الثورة المسلّحة الثأرية، و علي نتائجها التي تحقّق عودة اللاجئ إلي وطنهم. يريد أن

يؤكد أن لا دحر للغزة عن أرض فلسطين إلا بدم المجاهدين والشهداء. إن رمزية الدم في هذه الصورة العشرية، هي رمزية طالما استخدمها شاعرنا في عدد كبير من قصائده، و يأتي استخدامه المكرر لها انطلاقاً من إيمانه الثابت بقوة الدم الجهادي الاستشهادي.

فهو وحده يستطيع غسل العار وتحقيق عزة الانتصار. فالبياتي بهذه الرمزية، رمزية الدم الثوري يريد أن يقول بطريقة إيجائية: إن الأساليب السياسية والمفاوضات مع الأعداء لا تجدي اللاجئين نفعاً. وإن إتكالهم علي النظام العالمي الرسمي، ممثلاً بالأمم المتحدة، هو جنون محض و غباء تام. فالصراع بين الفلسطينيين والصهاينة صراع علي الوجود، هو صراع مستمر حتي ينتصر أحدهما علي الآخر انتصاراً مطلقاً، لهذا هو غير قابل للهدنة أو للتسوية، و لا يتخلله شعور بالرحمة واللين من قبل الغزاة المعتدين. فالغزة جاءوا لتحقيق هدف واحد و هو إقامة دولتهم اليهودية الكبرى التي تمتد علي مساحة بلاد الشام اليوم، أرض كنعان في التاريخ القديم، و هي الأرض التي وعد الله موسى بها في حوريب. و هذا الوعد نلحظه في خطاب موسى لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر: (الرب إلها كلمنا في حوريب، قائلاً: كفاكم قعود في هذا الجبل. تحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين و كل ما يليه من العربة والجبل والسهل والجنوب و ساحل البحر أرض الكنعاني و لبنان إلي النهر الكبير نهر الفرات. انظر قد جعلت أمامكم الأرض. ادخلوا و تملكوا الأرض التي أقسم الرب لأبائكم إبراهيم و إسحق و يعقوب أن يعطيها لهم و لنسلهم من بعدهم). ١١

هدف الصهيونية في فلسطين خاصة، و بلاد الشام عامة محدد إذن. هو هدف يعتمدون في تبرير سعيهم إليه علي التوراة التي طالما حرفوا كلمها عن مواضعه، ليتناسب و طموحاتهم العدوانية والتوسعية الشريرة. إن شاعرنا البياتي كان يدرك منذ الأيام الأولى التي شهدت حدث النكبة أن الصراع مع الغزاة الصهاينة هو صراع طويل و عقائدي. هو صراع بين الفلسطينيين، أصحاب فلسطين الشرعيين، والغزاة الذين يعتبرونها أرضهم التاريخية. و لا سبيل للمقاربة والمصالحة بين الفريقين المتصارعين، إذ لا يمكن إقامة تسوية بين القاتل والمقتول، أو مقارنة بين الحق والباطل. فالغزة في عقيدتهم الدينية يعتبرون أنفسهم شعباً اختاره الله، و أعطاه فلسطين ليعيش علي أرضها من دون غيره. و لهذا هم ارتكبوا الجرائم والمجازر الجماعية بحق الفلسطينيين، لتصبح الأرض

خالصة لهم. و لم يكتفوا بالعمل علي إبادة العرق العربي الفلسطيني، بل عملوا و ما زالوا يعملون بجد و همجية فظيعة علي إبادة مظاهر الحضارة العربية والإسلامية علي أرض فلسطين. فقتل الفلسطيني وحده لا يكفي، و لا يفضي بهم إلي الهدف البعيد، و هو إقامة دولة إسرائيل الكبرى العبرية اليهودية. إن وصولهم إلي هذا الهدف الكبير والخطير، يستوجب عليهم قتل الحضارة العربية القائمة علي أرض فلسطين و إبادة إبادته تامة. و لأن الغزاة اليهود يعتقدون هذه الأيديولوجيا الإجرامية التي تشكل خطراً مباشراً و حقيقياً علي فلسطين شعباً و حضارة و ثقافة، فإن البياتي أيقن أن هذه الأيديولوجيا لا يمكن إحباطها والتصدي لها إلا بالمقاومة والدماء الثورية. لا يمكن إحباطها و هزيمتها إلا بثقافة الشهادة، والسير علي طريق الكفاح. إنها أيديولوجيا صهيونية شريرة تؤمن بالعنف أسلوباً وحيداً يمنحها السيطرة علي فلسطين والعرب. فشاعرنا لم يكتف باستنكار الجرائم التي ارتكبتها هذه الأيديولوجيا الموصوفة آنفاً بحق الفلسطينيين، و لم يكتف بالتفجع والبكاء، بل مكنته الرؤية الثورية التي امتاز بها من استكشاف طريق العودة، و تحديد صورته و طبيعته. فهو طريق مصبوغ ترابه بالدماء، دماء المناضلين والشهداء، (إذ لا يجدر بالشاعر أن يقف عند حدود الرفض، بل لابد أن تملك رؤية التغيير لأمتة والإنسانية، و يغدو الموت في نظره ذا مغزي، و سيلاً إلي الخلاص والانعقاد و دعوة إلي الحرية). ١٢

فرمزية الدماء الواردة في نهاية القسم الثاني من (قصائد إلي يافا)، هي رمزية تعني الشهادة والموت. والشاعر يريد بواسطتها أن يوصل إلي اللاجئين الفلسطينيين رسالة تؤكد لهم أن عودتهم إلي وطنهم و ديارهم، هي رهن تضحياتهم الجسام. فلا يمكن لهم أن يضعوا الخطوة الأولى علي طريق العودة إلا ببذلهم أرواحهم رخيصة علي مذبح الحرية، لذا عليهم ألا يدخلوا في دهاليز السياسة الدولية حتي لا تفسخ وحدتهم الثورية و تضيع قضيتهم الوطنية والإنسانية. ثمه طريق واحد يفضي باللاجئين إلي كنف الوطن، هو طريق السلاح والشهادة، و كل الطرق الأخرى عبثية طرق غامضة يفتقد السائر عليها الرؤية والحقيقة: (حيث الخيام الباليات كأنها في الريح لافتة تشير إلي طريق العودة الدامي القريب).

إن الطريق الدامي الذي وجده البياتي منذ زمن النكبة الطريق الوحيد الذي عليه يعود اللاجئون إلى أرض فلسطين، لا يزال إلى اليوم يثبت صحة الرؤية الثورية التي امتلكها هذا الشاعر. فبعد مرور ستين سنة علي نكبة الشعب الفلسطيني وإقصائه قسراً وقهراً عن أرضه ودياره، صارت الخيام الباليات كهوفاً إسمنتية و سجوناً جماعية حقيقية، و لم يزل اللاجئون القابعون في هذه الكهوف والسجون المظلمة ينتظرون عودتهم إلى وطنهم، و يحملون بمجيء يومهم الأبيض المنير. فكل الطرق السياسية والتفاوضية التي سلكها القادة الفلسطينيون بغية حل قضية اللاجئين لم تُفضِ إلي نتيجة أو فائدة، بل كانت دائماً تفضي إلي الخيبة والمزيد من الذل والخسارة، و ظلّ طريق الثورة والدماء الطريق الأمثل والأفضل، إنه يثبت جداوه يوماً بعد يوم، و يثبت أن البياتي كان يمتلك الرؤية الثورية الصحيحة. و في القسم الثالث الذي يحمل عنوان (رسالة) من القصيدة السابقة (قصائد إلي يافا) يتابع البياتي وصف حال إخوته اللاجئين، و يثّ إليهم شعوره القومي الأخوي الذي جعله يشعر بألم جراحاتهم، و يتذوّق مرارة عذاباتهم، فهو واحد منهم. إنه يرتبط بهم قومياً و حضارياً و ثقافياً، والذي يؤلمه، والذي يسعدهم يسعده.

فالرابطة التي تربطه بهم، هي أقوى الروابط و أبقاها، ألا وهي رابطة الأخوة القومية والروحية. و لهذا استهل القسم الثالث الذي ذكرناه آنفاً بأسلوب النداء: (يا إخوتي)، فهو يريد بهذا الأسلوب أن يظهر لهم شعوره الأخوي النقي الذي هو أنقي من كل شعور. و في غمرة هذا الانفعال الشعوري الوجداني الصادق الطاهر المحتدم في نفس البياتي تتجلى لنا صورة اللاجئين النفسية والعاطفية التي يظهرون فيها مشتين، و مغربين، و هائمين علي تخوم العروبة ملتسمين من إخوتهم في الدّم والعقيدة العون والمؤازرة، تتجلى لنا صورتهم التي يظهرون فيها متحرّقين إلي العودة شوقاً وانتظاراً. و يتمني الشاعر لو أنه يستطيع أن يصل إلي إخوته اللاجئين، ليكون أكثر التصاقاً بمعاناتهم، ولكن الظلال السوداء تحجب وجهه عنهم، و تجعله وحيداً يغني الشمس، شمس العروبة والحرية. والظلال السوداء والشمس هما عند البياتي رمزان شعريان متضادان. فالأول يرمز إلي الغزاة و ظلمهم، و إلي الموانع الحدودية التي تحول دون وصوله إلي إخوته. والثاني يرمز إلي الثورة المشتعلة التي تحقّق عودة اللاجئين إلي

ديارهم، و تحقق للشاعر الاتصال بهم علي المستويين القومي والإنساني. الظلال السوداء التي تحول بين البياتي وإخوته اللاجئين لا تبددها إلا الشمس العربية الثورية ذات الأنوار والذهب. والأرض التي أخذت من أهلها اغتصاباً لا تعود إليهم إلا بقوة السيف، لا تعود إليهم إلا بالنضال والدماء. ويركز الشاعر في هذا القسم - كما في القسم السابق - علي الثورة باعتبارها الأسلوب الوحيد الذي ينقذ فلسطين من محتتها، و يأتي تركيزه المكرر عليها من منطلق إيمانه الشديد بها و بصحة نهجها. ففي القسم الثاني (أسلاك شائكة) يعتبر الشاعر أن عودة اللاجئين لا يمكن أن تكون إلا علي الطريق الدامي، و في القسم الثالث (رسالة) يظهر تحرقهم إلي النضال الثوري باعتباره الأسلوب الوحيد الذي يرجعهم إلي وطنهم والديار. وهذا ما نستشفه من قوله: (أنا لا أزال هنا، أغني الشمس محترقاً أغني لا أزال/ والريح، والعصفور في بيتي ينازع، والظلال/ سوداء تحجب عنكم وجهي المخضب بالدماء/ و ليل إسرائيل و هو يقيء حقداً وانتقام/ و عاهرين و مخبرين/ أنا لا أزال، هنا أغني الشمس، في صمتٍ وإصرارٍ حزين/ يا إخوتي المتحرقين إلي النضال). ١٣

الشمس المتوهجة التي يغنيها الشاعر و ينتظرها محترقاً بنار شوقه، هي - كما بينا آنفاً - ترمز إلي الثورة الدامية، ترمز إلي نور الحق الذي سيدد ظلمة الباطل، ترمز إلي الحرية الساطعة التي ستتتصر علي الطغاة والمستبدين. و لأجل رمزيها هذه يغنيها الشاعر، لأجل رمزيها هذه يدعو إخوته الفلسطينيين إلي النضال في سبيلها. هذه الشمس الحمراء المرجوة لا يمس شعاعها إلا جبين الذي نذر نفسه للوطن والحرية. إنها لا تبزع علي أمة إلا و تحمل إليها الحرية والعزة، و لهذا يغني البياتي بزوغها و إطلالتها في إصرار، غير متدمر أو متشائم، فهو مؤمن بحتمية بزوغها يوماً علي أرض فلسطين و شعبها مهما طال ليل إسرائيل، ليل الظلم والشر والجريمة: (والريح، والعصفور في بيتي ينازع، والظلال/ سوداء، تحجب عنكم وجهي المخضب بالدماء/ و ليل إسرائيل و هو يقيء حقداً وانتقام/ و عاهرين و مخبرين). ١٤

والوظيفة الشريرة التي يؤديها ليل إسرائيل، هي التي جعلت الشاعر ينتظر بزوغ شمس الثورة والحرية، فهذه الشمس هي التي تبدد بوجهها ليل الحقد والانتقام والصهيونية. و قد اعتمد الشاعر في هذا القسم من قصيدته المقابلة بين ليل إسرائيل

والشمس، ليظهر لنا صورة الغزاة القبيحة، فهي صورة سوداء منفرة، صورة توحى إلي ناظرها معاني الحقد والكراهية.

أما الشمس، فتوحى إلي ناظرها معاني التفاؤل والفرح. فالمقابلة بين ليل إسرائيل والشمس جاءت لتظهر الفرق الكبير بين الباطل والحق، بين الشر والخير، بين العدوان والسلام، جاءت لتظهر أن الغزاة يخفون بسواد أفعالهم و جرائمهم وجه فلسطين العربي، يخفون حضارتها الإنسانية الخالدة. بيد أن المناضلين الفلسطينيين سيبدون بنور ثورتهم الجماهيرية العادلة هذا السواد الغريب، ليعود وجه فلسطين ساطعاً بملامحه العربية.

هذه الرؤية الاستشرافية المستقبلية التي يديها البياتي في القسم الثالث من قصيدته، هي رسالة موجهة إلي الغزاة الذين اغتصبوا فلسطين، لتذرهم بأن ليلهم الذي يقىء حقداً وانتقاماً سيزول مهما طال أمده، وأن شمس العروبة ستسطع مبشرة بولادة فجر جديد، فجر مضمخ بعقب الانتصار والتحرير والعودة. وإذا ما انتقلنا من القسم الثالث إلي القسم الرابع الذي يحمل عنوان (المجد للأطفال والزيتون) نجد شاعرنا لا يستطيع الخروج من أجواء النكبة، أجواء الخيام واللجوء والعذاب في ليل الشتات، هي أجواء لا يمكن للإنسان الحر أن ينأى بنفسه عنها، و خصوصاً البياتي الذي أثارت هذه الأجواء عاطفته القومية والإنسانية. إنه ليؤلم هذا الشاعر إيلاماً شديداً أن يرى الفلسطينيين يعيشون لاجئين في الخيام، وهم أصحاب وطن جميل، و غني، و مقدس صار سلبياً. إن شاعرنا يريد بإشاراته المستمرة إلي محنة اللجوء أن يصور حالة الاستلاب التي يعيشها اللاجئون علي المستوي الوطني والإنساني. فهم سلبوا الأرض والديار والكرامة، سلبوا الأمن والحرية، هم صابرون علي أقسى محنة يمكن أن يمتحن بها شعب من الشعوب في الحياة، و لهذا حقهم أن يمجّدوا. كيف لا يمجّدون، وهم شعب الشهداء والمناضلين والصّامدين؟ لقد قام البياتي بواجبه الوطني القومي والإنساني تجاه اللاجئين، فمجّد صمودهم، و صبرهم، و تضحياتهم. و لا غرابة في أن يمجّد شاعر شعبه: (المجد للشهداء والأحياء، من شعبي و للمتمزقين الصّامدين/ المجد للأطفال في ليل العذاب و في الخيام). ١٥.

نلحظ في هذه العبارة الشعرية أن للأطفال نصيباً عند الشاعر من التمجيد كالشهداء والصامدين، فهم مثال البراءة والطهر والضعف، لا ينبغي أن يعيشوا محنة النكبة القاسية. إن تمجيد الأطفال عند الشاعر، هو إشارة شعرية منه إلي صمت الصامتين من العرب وغيرهم علي الجريمة التاريخية الكبرى التي ارتكبت بحق الطفولة العربية الفلسطينية، هو إشارة منه إلي غياب القيم الإنسانية عن الممارسة السياسية التي يؤديها العالم الجديد، و إلي انتفائها من المجتمع والحياة. فلو كانت هذه القيم حية في القادة السياسيين و في الشعوب، لما كان الصمت المريب الرهيب علي معاناة أطفال فلسطين و عذاباتهم. إن هذه الطفولة المعذبة تستحق من الناس عامة والعرب خاصة اهتماماً مميزاً، فهي البرعم الذي سيتفتح مستقبلاً عربياً زاهراً، هي البرعم الذي سيصير ثمراً و خيراً و مادة حياة.

فشاعرنا البياتي بقدر ما يمجّد الشهداء والصامدين والأطفال المعذبين في هذا القسم من قصيدته المذكورة، يحتقر الصّامتين علي جريمة النكبة التي ارتكبتها الغزاة الصّهاينة بحق الشعب الفلسطيني الآمن علي أرضه الغافل عن كل أذي قد يعتريه. إنه يستشيه من التمجيد، فليسوا أهلاً له، و لا يستحقونه. فالمجد فقط للأطفال، أطفال فلسطين الذين ما زالوا إلي اليوم يدفعون دمهم في سبيل الأرض والمقدسات، ما زالوا إلي اليوم يفعلون ما لم يستطع أن يفعله مدعو الرجولة في الوطن العربي الكبير. المجد فقط للزيتون في أرض السلام، للعصافير، للجيش المرباط علي ثغور العروبة. و كأن الشاعر البياتي في تحية المجد التي يرفعها إلي فلسطين والمدافعين عنها و عن هويتها يعتبر ضمناً أن العار للرجال الصامتين علي اغتيال عروبتها وإنسانها وتاريخها، العار للمتخاذلين المتواطئين مع الأعداء، و لم يجرؤوا علي قول كلمة حق واحدة. و هو في تحية المجد هذه لم ينس الشعراء والكتاب الشرفاء الذين يزودون عن الأمة و فلسطين التي هي فيها بمثابة القلب في الجسد، لم ينس النساء الكادحات والأمهات الثكالي والمناضلات. فكل أبناء فلسطين الجريحة علي اختلاف مواقعهم و أعمالهم يواجهون عدواً واحداً في معركة واحدة، يواجهونه بأسلحة متنوعة، كل واحد منهم يخوض المعركة بسلاحه. و لا تقل الكلمة الأدبية، عند البياتي، أهمية و فعلاً عن البندقية، بل هي توازيها إن لم نقل تفوقها. هي السلاح الذي يخوض معركة المصير، و يقطع يد الطغاة: (المجد للزيتون في أرض السلام/ و للعصافير الصغيرة و هي تبحث في تراب حقلي، و للجيش المرباط في

حدود وطني الكبير/ جيش العروبة والخلاص/ المجد للشعراء والكتّاب، أحباب الحياة/
الخائضين اليوم، معركة المصير/ والضارين يد الطغاة/ المجد للمرضي علي سرر البكاء/
و للنساء الكادحات الأمّهات). ١٦

إنّ صورة المعركة مع العدو تبدو لنا عند البياتي، انطلاقاً من هذا المقطع الشعري،
صورة تدلّ علي الشمولية، واتحاد كلّ القوي علي اختلافها و تنوعها في معركة التحرير
و صناعة السيادة. فلا يمكن أن يكون النصر علي الغزاة إلاّ بانصهار كلّ الطّاقات العربية
في أتون المعركة. لا يمكن أن يكون النصر إلاّ بوقوف الكلمة والبندقية معاً في تلازم ثوري
مستمرّ. فالبندقية تمثّل القوّة المادية، والكلمة تمثّل القوّة المعنوية. و كلّ معركة مع العدو
إذا افتقرت لإحدهما تكون ناقصة، و غير فاعلة، و غير مجدية. والتلازم الثوري بين
البندقية والكلمة نلاحظه في التّخية الرائعة، تحية المجد التي رفعها البياتي إلي الجيش المربط
علي حدود العروبة، والشعراء والكتّاب الذين يعمّمون ثقافة الحياة علي الناس.

فالجيش العربي المربط علي حدود فلسطين المغتصبة يمثّل الثورة المسلّحة، يمثّل قوّة
الثورة التي يؤمن الشاعر بجذواها في صناعة التحرير والعودة. إنّ الرّباط علي حدود
فلسطين هو بقية الأمل في النصر والعزّة، ولكنّ هذا الرّباط العسكري ينبغي أن يكون
معزّزاً بقوّة الكلمة الثورية التي تجعله في نفوس الجماهير عقيدة راسخة، و روحاً مشبعة
بالإيمان. و شاعرنا في إقامة هذا التلازم بين هذين السلاحين والقوتين يعتبر أن لا نصر
للبنديّة إن لم تعزّرها الكلمة التي هي دائماً غذاء العقيدة و مشعلة الحماسة الثورية في
صدور المعذبين والمضطهدين. و هو قد أقام هذا التلازم بين القوّة العسكرية والعقائدية
الفكرية انطلاقاً من تجربته الثورية النضالية، وانطلاقاً من معاشته و مراقبته الكثير من
حركات التحرّر التي كانت تحدث في بلدان شتّى من العالم. هو أقام هذا التلازم، لأنّه
يؤمن بأهمية سلاح الكلمة في معركة الحرّية والكرامة التي تخوضها العروبة مع أعدائها
الغزاة الصّهانية، و هو أجدر من غيره بأن يدرك جدوي هذا السلاح. فشاعرنا صانع
الكلمة، و حامل رسالتها، و يعرف مكوّناتها، و طاقاتها، لذا عوّل عليها في خوض
المعركة التحرّرية في كلّ المواقع سواء في فلسطين أو في أي بلد آخر يقع تحت الاحتلال
والاستعمار، و يتعرّض أهله للاستبداد والطغيان. فلا أمل بانتصار البندقية، مهما تكن

قوية و ذات سطوة، إن لم تحتضنها الكلمة و تكن لها غطاءً أو مرجعية فكرية و ثقافية، تمنحها الإمداد العقائدي والمعنوي.

إنّ البندقية تنهزم في بداية المعركة إن افتقرت إلي هذا الإمداد، أو افتقرت إلي ثقافة المقاومة والنضال. هذه الثقافة وحدها التي تجعل المرباط علي ثغور العروبة ثابتاً في موقعه كالجبل لا تزغزعه إعصارات العدوان، و هي وحدها التي تجعل الشعب الفلسطيني المسلوبة أرضه والمنتهكة كرامته يستبسل في سبيل عودته إلي وطنه حراً و أياً و عزيزاً. فشاعرنا اغتصاب فلسطين، و أظهرتها أرضاً بغير شعب، فحق أن تكون وطناً و ملكاً لشعب بغير أرض. القناديل في هذه الجملة الشعرية تعني المقاومة الثورية التي سوف تطرد الاحتلال عن الأرض المقدسة، ليستطيع الشعب الفلسطيني رؤية وطنه حراً و سيداً. فكل احتلال هو- كاليل- حجاب يمنع الناس أن يروا وطنهم محرراً، لهذا كان لابد من القناديل التي تبدد بنورها الليل، لتكون رمزاً للثورة التي تبدد الاحتلال.

هذه المقابلة التي تشير عند شاعرنا البياتي إلي انتصار القناديل علي الليل، إلي انتصار الحق علي الباطل، جاءت بمثابة التبشير بعودة اللاجئين مع يسوع إلي الجليل. فصورة العودة تبدو في نهاية القسم الخامس صورة تعبر عن انتصار فلسطين علي عدوها الذي اضطهد شعبها في التاريخ القديم والجديد. والآلاف في هذه الصورة هو انتصار المسيح علي الصليب الذي يرمز إلي الاضطهاد والعذاب والألم. فالمسيح استطاع أن يثأر لنفسه من عدوه القديم حين انضم إلي الفلسطينيين الجدد الذين يخوضون معركة المصير والحياة، فجاء النصر شاملاً، واستعادت فلسطين كل تاريخها الطويل الذي حاول الأعداء خلال حقبة كثيرة أن يبدلوه و يشوهوه بأفعالهم الإجرامية والتخريبية.

إن قصيدة (قصائد إلي يافا) البياتية بأقسامها الخمسة استطاعت أن تعبر عن مأساة فلسطين تعبيراً قوياً و غنياً بالصور والرموز والإيحاءات التي ترتبط بالنكبة و نتائجها الإنسانية والمصيرية. فتجلت في هذه القصيدة محنة الفلسطينيين في خيام اللجوء، والضياع، والفقر، والجوع والألم، حيث يحرقهم شوقهم إلي وطنهم، و ديارهم، و حقولهم بناره المحتدمة الحامية، و ينهكهم تحسّرهم علي ضياع ما كان، حيث يستحيل الأمل بالعودة إلي أرض الحدود سبباً كافياً للتشبّت بالحياة والعمل في سبيلها.

إنّ اللاجئين لو لا أملهم بالعودة، لكانوا فضلوا راحتهم و كرامتهم في الموت علي شقائهم و ذلهم في الحياة. بيد أنّ الأمل بالعودة إلي فلسطين هو القوة الجبارة التي جعلتهم يتصرون علي المحنة، و جعلتهم ثابتين أمام أعدائهم في معركة النضال والتحرير. و هذه القصيدة البياتية التي تتجلى فيها محنة الفلسطينيين الشديدة، لم تقتصر فقط علي تصوير المأساة الاجتماعية والحياتية التي كابدها اللاجئون، و إنّما أشارت إلي السبيل الذي يفضي بهم إلي الغاية الوطنية، والقومية القصوي، و هو سبيل السلاح، و سبيل الثورة، أشارت إلي القوة التي تصنع الخلاص المنشود، و هي قوة قومية شاملة يمثلها جيش العروبة الذي يربط علي حدود فلسطين، و تمرّ السنون و تتالي، و يظلّ الرّباط قائماً، و يظلّ حلم العودة مستمراً. و كلّما طال عمر النكبة، وازدادت أيامه، سقطت الرهانات علي التفاوض مع الغزة، و ضعف الإيمان بالحلّ السلمي. فالخلاص الذي أشار إليه شاعرنا في قصيدته هو إخلاص الذي يصنعه جيش العروبة، و تصنعه البندقية. والدماء الزكية التي تنسف علي أرض معركة الكرامة والإباء، و ليس ثمة خلاص آخر للاجئين. فكلّ سبيل أمامهم سوي البندقية والثورة، هو خرافة و توهم. إنّ هذه الرؤية الشعرية الثورية التي عبر عنها البياتي في قصيدته الآنف ذكرها قد أكدت الأيام صدقها.

فشاعرنا لم يكن في كتاباته الشعرية انفعالياً و متوهماً، بل كان يستشرف الزمن الآتي انطلاقاً من قراءته الحاضر قراءة دقيقة و صحيحة. كان يكتب الشعر الذي يتصل بالحياة و مشكلاتها و يخدمها و يخدم أبناءها. لم يكن الشعر عنده تعبيراً مرحلياً حتّي و إن ارتبط بحقبة أو حدث، كتكبة فلسطين علي سبيل المثال. فالقصيدة عنده تنطلق من الحدث، لتعبر عن معاناة الإنسان الدائمة، و تنطلق من الحقبة السوداء المتأزّمة، لتخاطب الأجيال، و تحثهم علي التضحية في سبيل صناعة الغد المضيء.

هوامش البحث :

١ - جورج سباين، تطور فكر السياسي ج ١، ترجمه جلال العروسي، دارالمعارف، مصر، ١٩٥٤،

- ٢ - جبران خليل جبران: المجموعة الكاملة لمؤلفاته (تصوص) رأي جبران في قصّة الشرق العرق ص ٢٣٥.
- ٣ - سورة الحجرات آيه ١٣
- ٤ - عيسى بلاطة: بدر شاكر السبّاب حياته و شعره، ص ٦٣، ط ٢، دار النهار، ١٩٨١
- ٥ - المرجع نفسه، ص ٧٤
- ٦ - ١- جورج غائم: شعراء وآراء
- ٧ - ١- عبد الوهّاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (سبع سنابل)، ص ٣٢٩، ط ٤، دار العودة، بيروت ١٩٩٠.
- ٨ - ١١- عبد الوهّاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (سبع سنابل)، ص ٣٢٩ و ٣٣٠ ط ٤، دار العودة، بيروت ١٩٩٠.
- ٩ - ١- عبد الوهّاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (البروفسور يوتكر)، ص ٣٤٧، ط ٤، دار العودة، بيروت، ١٩٩٠
- ١٠ - ١- عبد الوهّاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (البروفسور يوتكر)، ص ٣٤٧، ط ٤، دار العودة، بيروت، ١٩٩٠
- ١١ - ١- عبد الوهّاب البياتي: قصيدة (الحروف الخضر)، المصدر السابق، ص ٣٥٦.
- ١٢ - ١ ناديا شعبان: نيرودا مقابلة صحافية، صحيفة السياسة، آب ٢٠٠٤، السنة، ٣٧، العدد: ١٢٨٤٦، الصفحة الثقافية
- ١٣ - ١- عبد الوهّاب البياتي : الديوان، المجلد الأول، قصيدة (إلي مكسيم غوركي)، ص ٣٧٨، ط ٤، دار العودة، بيروت، ١٩٩٠
- ١٤ - ١- سورة الروم، الآية ٤٨.
- ١٥ - سورة فاطر، الآية ٩.
- ١٦ - ١- عبد الوهّاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (إلي مكسيم غوركي)، ص ٣٧٨، ط ٤، دار العودة، بيروت، ١٩٩٠.
- ١٧ - ١- أدونيس: الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الأول، قصيدة (مرثية الأيام الحاضرة)، ص ٢٢١، ط ٥، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨.
- ١٨ - ١- عبد الوهّاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (ميدان ماركس - انجلز)، ص ٢٤٣، ط ٤، دار العودة، بيروت، ١٩٩٠.
- ١٩ - ١- عبد الوهّاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (ميدان ماركس - انجلز)، ص

- ٣٤٣، ط ٤، دار العودة، بيروت، ١٩٩٠.
- ٢٠ - عبدالوهاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (ميدان ماركس - انجلز)، ص ٤١٩، ط ٤، دار العودة، بيروت، ١٩٩٠.
- ٢١ - عبدالوهاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (ميدان ماركس - انجلز)، ص ٤١٩، ط ٤، دار العودة، بيروت، ١٩٩٠.
- ٢٢ - عبدالوهاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (ميدان ماركس - انجلز)، ص ٤٢٠، ط ٤، دار العودة، بيروت، ١٩٩٠.
- ٢٣ - عبدالوهاب البياتي: الديوان، الحلة الأول، قصيدة (رفاق الشمس)، ص ٢٢٧، طه، دارالعودة، بيروت: ١٩٩٠
- ١ نزار قباني: الأعمال السياسية، الجزء الثالث، قصيدة (هوامش علي دفتر النكسة)، ص ٧١-٧٢، منشورات نزار قباني.
- ٢ عبد الوهاب البياتي: قصيدة (قصائد إلي يافا)، الديوان، المجلد الأول، ص ٢٠٩، ط ٤، دارالعودة، بيروت، ١٩٩٠.
- ٣ إنجيل يوحنا: الفصل ١٥، الآية ١٢-١٣.
- ٤ عبد الوهاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (قصائد إلي يافا)، ص ٢٠٩، ط ٤، دارالعودة، بيروت، ١٩٩٠.
- ٥ نزار قباني: الأعمال السياسية، الجزء الثالث، (هوامش علي دفتر النكسة)، ص ٧١-٧١، منشورات نزار قباني.
- ٦ عبد الوهاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (قصائد إلي يافا)، ص ٢٠٩، ط ٤، دارالعودة، بيروت، ١٩٩٠.
- ٧ عبد الوهاب البياتي: المصدر السابق، ص ٢١٠.
- ٨ د. عبد العزيز حمودة: الخروج من التبه - دراسة في سلطة النص، عالم المعرفة، ص ٣٤٨.
- ٩ زكي نجيب محمود: (أعذب الشعر أصدقه)، جنة العبيط، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٧.

- ١٠ عبد الوهّاب البياتي: الديوان، المجلّد الأول، قصيدة (قصائد إلي يافا)، ص ٢١٠، ط ٤، دارالعودة، بيروت، ١٩٩٠.
- ١١ الكتاب المقدّس: العهد القديم، سفر التثنية، الإصحاح الأول، الآية ٦، ص ٢٣٢، دارالكتاب المقدّس في الشرق الأوسط.
- ١٢ عبد اللّطيف أرناؤوط: عبد الوهّاب البياتي - رحلة الشعر والحياة، ص ٩٨، مؤسسة المنارة، بيروت، ٢٠٠٤.
- ١٣ عبد الوهّاب البياتي: الديوان، المجلّد الأول، قصيدة (قصائد إلي يافا)، ص ٢١١، ط ٤، دارالعودة، بيروت، ١٩٩٠.
- ١٤ عبد الوهّاب البياتي: المصدر السابق.
- ١٥ عبد الوهّاب البياتي: المصدر السابق، ص ٢١٢.
- ١٦ عبد الوهّاب البياتي: المصدر السابق، ص ٢١٢.

قائمه المصادر والمراجع

- إن خير ما نبتدىء به القرآن الكريم
- الجامع في تاريخ الادب العربي ، حنا الفاخوري ، دار ذوالقربي ، ٢٠٠١
 - تطور الفكر السياسي، جورج سباين ، ج ١ ، ترجمه جلال العروسي ، دار المعارف ، مصر ١٩٥٤،
 - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران : (نصوص) رأي جبران في قصّة الشرق العراق.
 - بدر شاكر السّباب حياته و شعره ، عيسي بلاطة: ، ط ٢، دار النهار، ١٩٨١
 - شعراء وآراء، جورج غائم : دار الحديث ط ٢ ٢٠٠٢
 - عبد الوهّاب البياتي : الديوان، المجلّد الأول ، قصيدة (سبع سنابل) ، ط ٤، دار العودة ، بيروت ١٩٩٠.

- عبدالوهاب البياتي : الديوان ، المجلد الأول قصيدة (الحروف الخضر) ، ط ٢. العودة ، بيروت ١٩٨٨
- ناديا شعبان : نيرودا مقابلة صحافية ، صحيفة السياسة ، آب ٢٠٠٤ ، السنة ، ٣٧ ، العدد : ١٢٨٤٦ ، الصفحة الثقافية
- الأعمال الشعرية الكاملة ، أدونيس : المجلد الأول ، قصيدة (مرثية الأيام الحاضرة) ط ٥ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٨.
- عبدالوهاب البياتي : الديوان ، الحلقة الأولى ، قصيدة (رفاق الشمس) ، دارالعودة ، بيروت : ١٩٩٢
- جورج سباين ، تطور الفكر السياسي ج ١ ، ترجمه جلال العروسي ، دارالمعارف ، مصر ، ١٩٥٤
- جبران خليل جبران : المجموعة الكاملة لمؤلفاته (تصوص) رأي جبران في قصة الشرق العرق سورة الحجرات آيه ١٣
- عيسي بلاطة : بدر شاكر السباب حياته وشعره ، ط ٢ ، دار النهار ، ١٩٨١
- المرجع نفسه ،
- جورج غائم : شعراء وآراء
- عبدالوهاب البياتي : الديوان ، المجلد الأول ، قصيدة (البروفسور يوتكر) ط ٤ ، دارالعودة ، بيروت ، ١٩٩٠
- عبدالوهاب البياتي : قصيدة (الحروف الخضر) ، المصدر السابق.
- عبدالوهاب البياتي : الديوان ، المجلد الأول ، قصيدة (إلي مكسيم غوركي) ط ٤ ، دارالعودة ، بيروت ، ١٩٩٠
- سورة الروم ، الآية ٤٨.
- سورة فاطر ، الآية ٩.
- أدونيس : الأعمال الشعرية الكاملة ، المجلد الأول ، قصيدة (مرثية الأيام الحاضرة) ط ٥ ، دار

العودة، بيروت، ١٩٨٨.

- عبدالوهاب البياتي: الديوان، المجلد الأول، قصيدة (ميدان ماركس- انجلز)، ط ٤، دار العودة، بيروت، ١٩٩٠.